جناية رجل

للأستاذ محمد سعيد العريان

... أجابني صاحبي :

نعم ، لقد كان ذلك عملاً لا ينبغي ، على أنه قد أودى بشرف امرأة ، وهناءة رجل ، وضيعة طفل يتيم في حياة أبويه ، وصيّرني في عين نفسي وفي عيون الناس إلى ما ترى ... وما أحاول أن أبرّئ نفسي ؛ بل إنني لأشعر أحياناً أن عليّ وحدي إثم هذه الجناية التي لم أقترفها ولم يكن لي يدٌ فيها !

وصمت صاحبي برهة وهو يحدّق في وجهي بعينين فيهما حيرة وارتياب ؛ ثم استأنف الحديث :

بلى ، وأقسم لك يا صاحبي ، ولكنني كنتُ رجلاً كما تعرف ؛ فلم يكن لي أملٌ في امرأة ولم يكن لامرأة حظٌّ مني ؛ وأين تجد المرأة عندي ما يُغريها بي وأين أجد من نفسي ؟ ... لقد كنتُ أعرف نفسي عرفاناً حقاً ، ولم يكن يخفى عليّ ما يتحدّث به الرجالُ والنساء عني ، وما تتحدث به إليّ مرآتي ؛ لقد كنت وما يطيب لي أن أنظر إلى المرآة ، كأني حين أنظر إلى صورتي بإزائي أرى شخصاً غريباً عني بغيضاً إليّ لا أطيق أن أراه أو أنظر إلى صورته ؛ وحين يتفق لي أن أرى شخصاً في وجهه بعضُ ما أعرف لنفسي من الدمامة ، أزوي عنه وجهي ، كأنما يذكّرني مرآه بشخص أكرهه ! ...

أراك تنكر عليّ ما أقول يا صديق ، ولكن ذلك كان هو رأيي في نفسي على حقيقته ؛ وقد يكون رأياً غريباً ، فما أعرف فيما قرأتُ أو سمعت أن أحداً كان له في نفسه مثلُ رأيي في نفسي وإن بلغت دمامته الحد الذي يوشك أن يبعده من حقيقة الآدمية !

... وكنت مؤمناً بأن القدر الذي تكتنفني صروفه منذ الطفولة قد هيأني لشيء غير ما يتهيأ له الرجال في عالم المرأة ، من الحب والزواج والأبوّة ؛ كأنما كانت تلك العلة التي شوّهت وجهي صغيراً ، وتلك الحادثة التي أصابتني بالعرج صبياً - تحولاً في إنسانيتي ، وحجازاً بيني وبين أحلام الطبيعة التي تهمس في الدم وتوسوس في القلب . وشعرت منذ فقدتُ أمي ولم أتجاوز السابعة بعد، أن آخر سبب كان يربطني بالمرأة قد انقطع ، فليستْ من دنياي ولستُ من دنياها ؛ وعشت عمري في هذه الحقيقة من بعد ، لا تنظر عيناي إلى امرأة ولا أحس وقع نظرة امرأة ، ولو قد أحسستها مرة لخجلتُ ، لعلمي أنها لا تنظر حين تنظر إليّ — رجلاً مما يقع في عالمها ، ولكنها تنظر مسخاً مشوّهاً يشير إلى آية من آيات القدرة الخالقة !

... كذلك كنتُ عند نفسي حتى لقيتها ، فأرتني من نفسي صورة غير ما كنت أعرف لنفسي ؛ وكشفتْ لي عن صورتي في مرآتها ! ...

... كنتُ يومذاك جالساً إلى مكتبي أعالج عملاً دقيقاً لا يصلح أن يتولاه غيري ، حين دخل عليّ حاجبي يؤذنني أن سيدة تريد لقائي ؛ ونهرتُ حاجبي إذ قطعني عن عملي من أجل امرأة ؛ وما لي وللنساء ؟ ما شأنهن وشأني ؟

ودعوتُ شاباً من مساعديّ ليلقاها ويتقصّى أمرها فيخبرني ؛ وكثيراً ما كنتُ أندبه لمثل ذلك فيكفيني ويجزئ عني ؛ ولكنه في هذه المرة لم يُغنِ عني شيئاً ، وعاد إليّ ينبئني أن السيدة لا تريد لقاء أحد غيري ؛ وابتسمتُ على غيظ حين أنبأني ذلك ؛ فقد كنت أعلم من طول خبرتي في هذا العمل الذي أتولاه ، ما تدعونى له مثل هذه الزائرة ؛ فما هو إلا لاعتقادها أنني - وأنا رئيس المكتب - أقدَرُ على قضاء حاجتها من غيري ، وإن كانت حاجتها من التفاهة بحيث يستطيع ساعي المكتب أن يقطع فيها برأي ! ... ذلك رأي النساء جميعاً ؛ وإن إحداهن ليبلغ منها الإلحاح في طلب لقائي أن تضجرني وتحرج صدري ، فلا أجد عقاباً لها على ذلك إلا أن أخرج إليها فتراني ...

... ولم أكن في ذلك اليوم متهيئاً لاستقبال أحد ، ولم تكن بي رغبة إلى عقاب امرأة ؛ فطلبت إلى حاجبي أن يعتذر إليها . وخرجت السيدة ولكنها لم تلبث أن عادت ، وعاد حاجبي يُؤذنني برغبتها في لقائي ؛ وتكرر بيننا الرجاء والاعتذار ، ثم لم أجد بُدًّا في النهاية من الخروج إليها ...

ورأيتها ورأتني ، ولكني لم أر في وجهها ذلك المعنى الذي طالما رأيته في وجوه النساء حين أجلس إلى امرأة منهن . ولأول مرة منذ ماتت أمي ، جلستُ إلى امرأة أتحدث إليها وأستمع

لما تقول ، وإنى لأحس فى نفسى بَرْدَ الراحة وَرَوْح الاطمئنان. لا أعنى أنها ذكَّرتنى أمى ، فقد كانت أصغر كثيراً مما ظننت وأشبّ شباباً ؛ ولكنى شعرتُ إذ جلستُ إليها شعوراً لم أحسّ مثله منذ بضع عشرة سنة ، منذ ماتت المرأة الوحيدة التى منحتْنى حبَّها واستحقت حبى !

كان فى وجهها سماحةٌ وطهر ، وفى عينيها نظرة طفل يرى كل شىء جديداً على عينيه ، وقد افترَّت شفتاها عن ابتسامةٍ حزينة تكتم معنى وتفصح عن معنى

لم أشك حين رأيتها أنها عذراء ، فتاة على طبيعتها الطاهرة لم تطبعها الحياة بعدُ بذلك الطابع المصنوع الذى يجعل لكل شىء لونين فى ظاهره وباطنه . وأقبلت علىّ تحدثنى حديثها . لم يكن فى صوتها ولا فى نظراتها شىء يدل على أنها ترانى رأىَ الناس وتنظر إلىّ

... أخشى أن أقول لك يا صديق إنها كانت تحدثنى كأنما تناجى حبيباً عزيزاً لقاؤه ! ولكنى كذلك شعرتُ وتتئذ ! .

ومضتْ فى حديثها ، ولم أسمع حرفاً واحداً مما قالت ؛ إذ كنتُ وقتئذ فى حديث مع نفسى ؛ فلما أوشكتْ أن تنتهى من عَرْض أمرِها وراحت تسألنى رأيى ، بدأت أصغى إليها ... وكان لها مشكلة معقدة تقتضى تدبيراً وأناة وحسن احتيال ؛ وعنيت بأمرها

أترانى يا صديق فى حاجة إلى التأكيد بأن عنايتى بأمرها لم تكن شيئاً على خلاف عادتى فى مثل مشكلتها ؛ ولكنك مُصدق ولا شك ، فقد كنت إلى تلك اللحظة مَن كنت ؛ ليس لى همٌّ إلا عملى وواجبى !

وزارتنى بعدها فى مكتبى مرة ومرة ومرات ؛ وتوثقت بيننا أواصر المودة ، وألِفَتْ أن ترانى وأن تتحدث إلى ، وألِفْتُ أن أستمع إليها ، وكأنما كنت فى نومة ثقيلة ثم استيقظت ، وانجاب عنى غشاء صفيق كان يلقى على كل شىء من أشياء الحياة ظلاً يبغّضه إلى ، وتزّينت لى الحياة ؛ وكأنما كانت مرآتى صدئة فجلتها بأنفاسها فعادت مصقولة لامعة !

ليس يعنيك كثيراً يا صديق أن تعرف كل شىء ؛ ولكن الذى يعنينى أن تعرفه عرفان اليقين ، أنى لم أتودد إليها ولم أحاول اجتذابها ؛ فقد كانت أسرع إلى من خطرة الأمل ؛ فاهى إلا مرات التقيناها حتى كان كل شىء منها يتحدث إلىّ حديثاً أجد صداه فى نفسى ؛ ومن غير مؤامرة ولا تدبير ، رأيتنى أمشى معها ذراعاً إلى ذراع فى الطريق ! ...

لم أنم تلك الليلة ولم أذق طعم الغمض ، لعلك تحسب ذلك يا صديق فرحاً بتلك النعمة التى سيقت إلىّ من حيث لا أدرى ! كلا ، ولا بعض هذا ، لقد سهرت تلك الليلة إلى الصباح فى قلق وهم ؛ وفى حديث بينى وبين نفسى كله تأنيب وملامة ؛ لقد كنت موقناً أنى لست الرجل الذى تؤهله صفاته ليكون حبيباً يلم طيفه بخيال امرأة ؛ ولم أكن من الغفلة بحيث أنسى بسهولة حقيقتى التى عشت بها ما فات من أيامى ؛ وكنت خائفاً أن يكون قد بَدَر منى شىء على هوى أشعَرَها أملاً وأخفى عنها حقيقة ، فانقادت إلىّ مخدوعة وعلى عينيها غشاوة

بلى ، لقد كنت سعيداً بحبها ، ولكننى لم أحاول قط أن أشعرها معنى يدنيها إلى ويزيدنى حباً إليها ؛ وكان ضميرى يخادعنى حين كنت أستمع إلى نجواه فى نفسى قائلاً : « لا عليك ملامة إذ كانت تحبك دون أن تطلب إليها ! » ويا لها خدعة ! وهل زادها حباً لى إلا شعورُها بأنها تجد لعواطفها فى نفسى استجابة ؟ . . . وفى مرات كثيرة ، كان يثوب إلىّ رشادى ويغيب عنى هواى ، فأهمّ أن أقول لها وإنها لجَالسةٌ بإزائى : « أنظرى إلىّ ! هل ترينى أصلح للحب ؟ » ، ولكنى لم أجرؤ فى مرة واحدة من هذه المرات أن أقولها ؛ لأن هواى كان يغلبنى على رأيى ؛ فتقول لى نفسى : « أو ليستْ تراك دون أن تطلب إليها أن تنظر ؟ »

وحتى يوم أسلمتْ لى شفتيها وأغمضت عينيها فى مثل غشية الوحى ، لم يقع فى نفسى إلا أنه عمل منها لا منى ، والقبلة المعسولة ما زال يرن صداها فى قلبى !

ولكننى مع كل ذلك يا صديق لم يغبْ عنى قط ، أن ذلك عمل لا ينبغى ؛ كانت هذه الحقيقة قارة فى أعماق ، على الرغم من هوى النفس وخداع الضمير؛ ولم أكن يومئذ أعرف . فكيف لو عرفت؟

. . . ومَضَت بنا الأيام على ما قُدِّر لى ولها ، لم أحاول أن أسألها شيئاً ولم تحاول أن تخرق علىّ ؛ ومع ذلك فقد ظللتُ دهراً لا أعرف ، على غير إرادة منى ولا إرادة منها ، ولم تكن فى يقينى إلا فتاةً على طبيعتها الطاهرة ، لم يزل بينها وبين الحياة باب مغلق . . . وأغنانى يقينى عن سؤالها ، وحال بينى وبين التماس أسباب المعرفة أنى لم أكن أريد أن يكون منى عملٌ إيجابى يُشعرها أن لى بأمرها عناية فأمد لها أسبابَ المنى !

ثم كان يوم وكانت الصلة بيننا قد توثقت حتى لا سرَّ بيني وبينها، وجلست تتحدث إليّ، وعرفتُ ...

يا لله! ... ليتني كنت أدري! وهل كان يدور بخاطري يوماً أن هذه الفتاة التي بعيني هي امرأة، هي زوجٌ قد انفتح البابُ المغلقُ بينها وبين الحياة ... !

لم تكن خادعةً فيما أعلم حين كتمتْ عني حديثَها طوال هذه الأشهر، ولكنها لم تجد سبيلاً إلى أن تقول، فصمتتْ، فلما أمكنتها الفرصةُ جاء الحديثُ لوقته فراحت تقص عليّ ...

وشعرتُ بالغيرة تلذع قلبي لأول مرة، غير رجلٍ يحاول أن يستأثر بما لا يملك دون الذي يملك؛ ولكني لم ألبث أن فئتُ إلى رشادي واستيقظ ضميري، فرحت أوبخ نفسي على ما كان وأشبعها تعنيفاً وملامة، ولكني لم أجرؤ أن أقول

لم يكن لها خيارٌ فيما فعلتْ. هكذا حكتْ حين قصت عليّ خبرها؛ فقد ماتت أختها عن بنين وبنات وزوجٍ في سن أبيها له مالٌ وجاهٌ وشفاعةٌ ويد مبسوطة؛ وكانت هي يومئذ تلميذة في السادسة عشرة، دنياها معلم وكتاب ومسطرة ... وعادت يوماً من مدرستها فإذا في غرفة الاستقبال كاتب وشهود، وباتت مُسمّاة على زوج أختها، ثم أصبحتْ زوجاً وأماً لبنين وبنات وما حملتْ ولا ولدتْ!

لم تفهم شيئاً مما مرَّ بها إلا كما تفهم كل فتاة في بيت أبيها أن يقال لها قومي فتقوم، واجلسي فتجلس!

وانتقلت من دار إلى دار ولكن قلبها لم يزل على نقاوته وطهره، في عينيها نظرة الطفل، يرى كل شيء جديداً على عينيه، وعلى شفتيها ابتسامتها الصامتة المبينة، وفي رأسها أحلامها، ثم التقينا

... هذا ما قالت لي؛ وقال لي ضميري: ويحك يا شقي! إنك تحاول إفسادَ امرأة على رجلها!

وقال لي هواي: وماذا فعلت؟ أيكون الاستماع إلى شقية بائسة تشكو بثها محاولةً لإفساد امرأة؟ وزدتُ من يومئذ آلاماً إلى آلامي، وزدتُ إلى ذلك إيماناً بنفسي وأيقنت من يومئذ أنني شيء، وأيقنت إلى ذلك أنني في عمل لا ينبغي!

وحاولت منذ عرفت أن أبتعد عنها وإن قلبي لينازعني إليها، فلا أنا صممتُ فيما حاولت ولا هدأ قلبي؛ وعدت بين نزاع القلب وتأنيب الضمير في شقاوة وألم؛ ولكنني كنت بشقاوتي سعيداً!

ويلي! ليتني عرفتُ يومئذ كل شيء! أم ليتني مضيتُ فيما صممتُ ولو كان فيه تدميري وهلاكي؛ إذن لاحتفظت لنفسي براحة الضمير إذ فقدت راحة القلب! ولكنني لم أكن أعرف؛ وكان الدهر يدخر لي البقية ...

... ولقيت صديقي «فلاناً» على غير ميعاد؛ وجلس يتحدث إليّ ... وأرهفت أذني للسمع، وخيل إليّ وهو على مقربة مني وأنا أستمع إليه أن بيني وبينه من البعد مسافة تسافر فيها الأحلام وتئوب؛ وجثم على صدري كابوس مفزع لا يخف ولا يتحلحل؛ وهممت أن أتكلم فما أطقت الكلام؛ ودار رأسي مثل خذروف الوليد بين قوتين تتجاذبانه، وتناثرتُ أشلاءً على مكاني ...

ولما أفقت بعد برهة لم يكن بجانبي أحد غيره، ورن صوته في مسمعي: «رفقاً بنفسك يا صديقي! إنك تتعب نفسك أكثر مما تطيق!»

ثم خلفني وآلامي، ومضى! إذن فهو ذاك! إنها زوجته!

وهجرتُ المدينة يا صديقي إلى حيث أحاول التكفير عن خطيئتي والفرار بنفسي؛ وهجرتها بلا وداع، ولكنها لم تتركني وشأني؛ لقد أصابها من ذلك مثلُ سُعار الجوع في الكلب الضالّ

وكان زوجها يتحدث إليها حديثاً من حديثه، فحسبته يعرّض بها، فثارت به، ثم اندفعتْ في ثورتها؛ وابتسم الرجل وتمتم بكلمات، وألقى الشيطانُ في أذنها كلمات غيرَ ما قال؛ فزادت ثورةً وهياجاً، وقالت: «بلى، إنني أحبه، وسأتبعه إلى آخر الدنيا!»

وعلا بكاء طفل، طفلٌ رضيع لم يفتح عينيه على الحياة إلا منذ أيام معدودات؛ وقلب الرجل عينيه بين الطفل وأمه، وقال في همس: «إذن فهو ولده؟ ....». وفتحت الأم فمها مدهوشة ورفّتْ، وسألتْ: «أتراه يظن ... ! ويلي!»

ونالني رشاشها على مبعدة يا صديقي وما جنيتُ جناية ...

... ذلك كل ما كان من أمري وأمرها؛ أم تراني جنيتُ إذ أحببتُ امرأةً أحبّتني، أنا الذي عاش ما عاش من عمره لم يؤمل أن تعطف عليه امرأة؟ ... نعم، لقد كان ذلك عملاً لا ينبغي، ولكن ...

قلت: «ولكنه أودى بشرف امرأة، وهناءة رجل، وضَيْعةِ طفلٍ يتيمٍ في حياة أبويه، وصيّرك في أعين الناس إلى ما ترى ... أنتَ ما جنيتَ يا صديقي، ولكن ثمة جنايةَ رجل؛ فمن جناها؟»

محمد سعيد العريان

{ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المبدولي — عابدين }